

بين كلمة دبابة التي تحيل بالضرورة إلى مكان تقف فوقه تلك الآلية العسكرية، وكلمة ميلاد التي تبشر بالحياة وتحيل إلى زمان يحدث فيه، من حكايات الحب التي تبدأ مع نهاية الحرب العالمية الأولى وعودة إسكندر عام 1942، ومجيء المحتل ودواتف استيطانه وخليفاته النفسية والتاريخية، يوثق إبراهيم نصرالله ما شهدته بيت ساحر الفلسطينة على امتداد خمسة وسبعين عاماً من الاحتلال. لكن بعد أن تهبّ المدينة كلها ستعي أن القصص التفصيلية ليست إلا تفاصيل تجعل من المسرح الحكائي مساحة قادرة على استيعاب شعب بأكمله، فالبطل الحقيقي هو المدينة بكل ما فيها. فالمحرّج الفلسطيني عامر الشوملي بالتعاون مع المخرج الكندي بول كوان، عملاً على توثيق العصيان المدني أواخر الانتفاضة في فيلمه "المطلوبون الـ 18" والذي رشح لنيل جائزة أوسكار عن فئة الفيلم الأجنبي لعام 2016. لم يكن المكان في الرواية عنصراً من عناصر الديكور، فهي لا تحلّ بمكان آخر، إنما تحلّ بالمكان حالياً من كابوس وجود قيم الآخر الذي يقتل الحاضر ويحاصر حياتها. إذاً في بيت ساحر دبابة تحاصرها وتمنع عنها الحياة وعلى هذا الأساس يبني الصراع. وهكذا فإن المكان الذي من المفترض أنّ وجود إسرائيلي فيه قد حوله إلى سجن، وكلا القسمين يواجه الآخر بشراسة ترغبه في الانتصار ومحو الآخر. مقارنة بما كتب في الروايات العربية الحديثة عن المدن، خاصة تلك الروايات التي تحدثت عن المدن بعد أو خلال الحروب، تبدو بيت ساحر مدينة من نوع آخر، فلا حنين مرضياً يجمعها بأهلها، ولا مشاعر سلبية تربطهم بها، فهم لا يرغبون بغيرها، إنما هي وفي أحلال أوقاتها أمانٌ مطلق يتمكّنون من التنقل فيها رغم الحصار ومنع التجول بطرق سلسة وخفية تستعصي على فهم المحتل، ما يشير إلى أمررين: الأول كونها تمثل المكان المغلق الاختياري، ولعلّ هذا يشبه اسمها بيت ساحر "فحين تذكر البيت والجرات فإننا نعلم أننا نكون داخل أنفسنا" [3] وهذا لو نظرنا إلى واقعها المحتل يخلق مفارقة نوعية، فهي لم تتحول بالنسبة إلى أبنائها إلى مكان للتشرنم والضياع والألم، فبيت ساحر ظلت في الرواية المكان المأساة بالنسبة إلى داود وجندوه، عانوا فيه من الفلق والضياع والسخرية فكانهم أوجدوا فيها لأنفسهم كمحظتين حراً منغلاً، يمكن النظر إلى المونولوج السوداوي الذي ظالماً حدث به الكابتن داود نفسه، والذي يختصر حال اليهود المحتلين الذين باتت فلسطين بيته لعزتهم عن العالم، يؤكّد ذلك أنّ المكان حين ينفتح على الشوارع أو الساحات العامة، تراه يبقي على أمان الفلسطينيين، هي ليست عنده إلا شيئاً لأحلام أجداده الذين جاءوا محظتين (داود وجده) وفريق يراها أرض ميعاده وجنته (إسكندر وأولاده وأهل المدينة)، وبذا تغدو المدينة مسرحاً لأزمة إنسانية تبحث عن حلّ في ضمير البشرية، هكذا تعبّر الزّمن لتتصلّب المعنى الوجودي الإنساني المتعلّق بالحق والخير والجمال والحرية والعدالة، كمعانٍ إنسانية عامة يستحقها جميع البشر على اختلافهم. كمدينة بتفاصيل أيامها مع الاحتلال، فيما تعبّر بيت ساحر الزّمن، بما تشهده من قسوة محظتها، هي تقف ساعتها لموقف أيديولوجي وجودي، كما حرص على توثيق ما حصل في حصار بيت ساحر حين رفض الأهالي دفع الضّرائب، فأين اختلف ما كتبه عن أيّ توثيق صحفي؟ محاولة للهرب من الإطار التوثيقي، إذ إنّ مهمّته حصر الحال وتحديده، وما انتهاء الرواية بعزف مارتا رغم تقديمها في العمر، إلا خروج عن المألوف وهذا ما يفعله العمل الفني. استطاع نصرالله أن يحبك قصته، مستعيناً بما بات يتقدّمه من تقنيات السرد التي تمثلت بالاختصار أحياناً، رغم صعوبة المهمّة، كما في أعمال أمين معلوف، محاولات لجمع التقاضيات الحضارية وفتح حوارات ثقافية حول الهوية، لكنّنا في رواية دبابة تحت شجرة عيد الميلاد، قادر على العبور باللحظة. التاريخية الصعبة إلى مآل من نوع آخر... ربما يشبه الموسيقى لا يمكن احتجازها من قبل دبابة عاجزة تقف تحت شجرة الميلاد